النشـــــــــــــرة

تصـــدرها مطـــرانية الـــروم الأرثوذكـــس في بـــيروت

العدد ٤٩ / ١٩٩٩
الأحد ٥ كانون الأول

تذكار أبينا البار
المتوشّح بالله سابا المتقدّس

اللحن الثاني
إنجيل السَحَر الخامس

الـــرســـالـــة (غلاطية ٥: ٢٢-٢٦)
الإنـــجـــيـــل (لوقا ١٣ : ١٠ - ١٧)

+ القديس أمبروسيوس

تعيِّد الكنيسة الأرثوذكسية في السابع من كانون الأول لأحد اعلام الكنيســـة الجامعة، القديس أمبروسيوس أسقف ميلان، الذي كان نموذجاً فـــي الدفـــاع عـــن الإيمان وحفظ كلمة الرب مصانة من البدع، كما في رعاية الفقراء والمساكين.

وُلد أمبروسيوس عام ٣٤٠ في مدينة تريفيري عاصمة بلاد الغال (فرنسـا)، من عائلة رومانية متقدمة في الشرف. وكان والده حاكماً لعدد من الأقـــاليم منـــها فرنسا وإيطاليا. لم يفتخر أمبروسيوس بهذا بل اعتبر الشرف في عمل الفضائل.

عندما توفي والده كان في الثالثة عشرة فانتقلت به والدته مع إخوته للعيش في روما. هناك درس اليونانية والبيان والفلسفة والخطابة ونبغ فيها. وقد ربته أمه على الفضائل المسيحية فنما في نفسه حب البتولية فنذرها ولم يكن قد اعتمد بعد إذ كان رائجاً في عصره تأجيل المعمودية بسبب الاعتقاد أن الخطايا بعد المعمودية لا تُغفر. ويُقال انه لم يعتمد قبل بلوغه الرابعة والثلاثين، عندما تم اختياره أسقفاً على ميلان.

من روما انتقل أمبروسيوس إلى ميلان حيث درس القانون. وقد شاع صيته هناك فاستدعاه والي إيطاليا وأقامه حاكماً على المقاطعة لما سمعه عنه من فضائل. كان أمبروسيوس مثال الراعي للمقاطعة، حتى انه حين رقد أسقف ميلان لم يجد الشعب بديلاً من الحاكم أمبروسيوس لإقامته أسقفاً عليهم، فنادوا بصوت واحد: «**أمبروسيوس أسقف**». رفض أمبروسيوس الأمر وهرب من أمام الشعب. اختبأ أياماً عدة لكنه رضخ لإرادة الشعب بعد أن ضغط عليه الإمبراطور، فتمت معموديته وارتقى الدرجات الكهنوتية حتى الأسقفية في مدة ثمانية أيام.

بعد ارتقائه السدة الأسقفية وزَّع الثروة التي ورثها عن والديه على الفقراء، ووهب الكنيسة أراضيه، وترك القليل من المال لمعيشة أخته. كان يصوم كل يوم ما عدا الآحاد والأعياد، ولا يقبل الدعوات إلى الولائم، ويمضي أكثر ليله في الصلاة ويُقيم الذبيحة الإلهية كل يوم. إضافة إلى ذلك كان يهتم بشؤون الرعية فيرشد الضالين ويؤوي المساكين ويُطعمهم. كان يقول: «إن إطعام الجياع وفك الأسرى وتشييد الكنائس والعناية بالمدافن يجعل بيع الأواني المقدسة حلالاً». كان يحث الجميع على حفظ البتولية، والخطأة للتوبة والمؤمنين على المناولة المتواترة، وقد كتب العديد من المقالات في هذه المواضيع.

اشتهر أمبروسيوس أيضاً بدفاعه الكبير ضد الآريوسية، ورغم دعم الإمبراطورة يوستينة للآريوسيين صمد بعون الله ولم تستطع يوستينة النيل من الكنيسة رغم محاولتها الاستيلاء على بعض الكنائس بالقوة وحجر حريته وقتله وترحيله. وقد أعلن أمام المؤمنين استعداده للموت من أجل الإيمان إذا كان لا بد من الموت، وكان يردد: «... صلوات الفقراء هي حصني...».وقد نظم أمبروسيوس خلال فترة الاضطهاد العديد من الاناشيد التي تتضمن تعليماً عن العقيدة والإيمان القويم. انتهى التوتر بموت يوستينة واستلام ابنها فالنتينيانوس الحكم، فتقرب فالنتينيانوس من أمبروسيوس وصار بمثابة ابن له.

في العام ٣٩٠، على زمن الإمبراطور ثيودوسيوس، حدث في تسالونيكي (شمال اليونان) اضطراب بسبب احتجاز سائق عربة من قِبَل الجند، مما دفع الناس إلى رجم عدد من الجنود حتى الموت. ولما بلغ الأمر إلى الإمبراطور أمر بقتل سبعة آلاف شخص من أهل المدينة. سمع أمبروسيوس بالأمر فبعث إلى الإمبراطور رسالة يدعوه فيها إلى التوبة من أفعاله ويعلمه أنه لن يقبل تقديم الذبيحة الإلهية في حضرته. تحدى الإمبراطور أمبروسيوس وأتى إلى الكنيسة، فما كان من أمبروسيوس إلا أن وقف عند باب الكنيسة ومنعه من الدخول، موبخاً إياه على فعلته.

رضخ ثيودوسيوس وعاد إلى قصره وأقفل على نفسه مدة ثمانية أشهر قضاها في البكاء على خطاياه، وكان يقول لمستشاريه: «لا أحد يعرف ما في نفسي من قلق واضطراب. فأنا أبكي وأنوح على شقاوتي. كنيسة المسيح مشرّعة للشحاذين والعبيد، فيما أبواب الكنيسة، وبالتالي أبواب السماء، موصدة دوني». بعد هذه المرة عاد إلى الكنيسة واتخذ مكانه بين التائبين ثم سُمح له أن يقف بين الشعب، لا في مكان خاص، ويتناول الأسرار المقدسة.

منح الله أمبروسيوس نعمة طرد الأرواح الشريرة وشفاء المرضى، حتى أنه أقام ميتاً في فلورنسا واهتدى بواسطته عدد كبير من البرابرة. وبقي يخدم رعيته بكل تفانٍ وورع إلى أن رقد بالرب بسلام في الرابع من نيسان من العلم ٣٩٧، في ليلة سبت النور، فاستحق أن يقوم مع المسيح ويكون من أبناء الملكوت، جالساً مع خراف اليمين. فبشفاعته اللهم ارحمنا وخلصنا آمين.

+ تاريخ التعييد للميلاد

التقويم الكنسي أو الروزنامة الكنسيَّة هي مجموعة الأعياد أو التذكارات التي يُحتفل بها خلال السنة الطقسية في تواريخ ثابتة أو متحركة. هدف إقامة هذه التذكارات أن نحيا الأحداث الخلاصية من جديد لا أن نتذكرها وحسب. الأعياد تعرض لنا سر الخلاص الذي منحنا إياه الرب قديماً وما زال، لنحياه الآن وهنا. وهذا هو سر الليتورجيا بالتحديد.

من الأعياد الكنسيَّة المهمة عيد ميلاد الرب يسوع بالجسد في الخامس والعشرين من كانون الأول. كيف تم اختيار هذا التاريخ بالذات ليكون يوماً للاحتفال بعيد الميلاد، رغم ان الأناجيل المقدسة لا تذكر شيئاً عن الموضوع ولا

حتى سنة ولادة يسوع؟ ما ذكره الإنجيلي لوقا هو عن «رعاة متبدِّين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم» (٨:٢)، يزيد الأمور تعقيداً إذ لا يمكن وجود رعاة وقطيع في برد الشتاء في بلاد فلسطين، مما يدفع الإنسان إلى التفكير بفصل الربيع أو الصيف. لماذا أختير إذاً ٢٥ كانون الأول للتعييد للميلاد ومتى تم اختيار هذا التاريخ؟ نذكر الآن انه في أوائل القرن الرابع ابتدأ الغرب تعييد عيد الميلاد (أو الظهور) في ٢٥ كانون الأول، مُنصِّراً عيد انقلاب الشمس الشتائي (Winter Solstice) الوثني وفي أواخر القرن الرابع ابتدأ الشرق أيضاً يعيِّد للميلاد في هذا اليوم، بعد أن كان يعيد في ٦ كانون الثاني لعيد الظهور الذي كان يشمل ميلاد المسيح وعماده. لذلك فإن التمييز بين عيدي الميلاد والظهور، خاصة في الشرق، أمر صعب.

عند بدء انتشار المسيحية في القرون الأولى، عيد منتصف الشتاء أو ما يعرف بانقلاب الشمس الشتائي أحد أهم الأعياد الوثنية.الشرق كان يحتفل في ٦ كانون الثاني بيوم انقلاب الشمس متبعا ما كان يحصل منذ العام ١٩٩٦ قبل المسيح في الإسكندرية – مصر – التي كانت مركزا مزدهرا لعلم الفلك عام ٤٥ ق.م. بدأ اتباع التقويم اليولياني صار تاريخ التعييد لانقلاب الشمس في ٢٥ كانون الأول، في الشوق والغرب. في هذا اليوم يمجد الوثنيون الشمس كمصدر للحياة وانها القوة الإلهية العليا لأن فترة النهار منذ هذا اليوم تبدأ بالزيدة بعد أن تكون وصلت إلى أقصر مداها، وهذه علامة على انتصار الحياة على موت الشتاء، انتصار النور على الظلمة، قيامة الطبيعة. طبعا تشكل الشمس مركزية الاحتفالات.

في أواخر القرن الثالث، وفي حملة مضادة على النجاح المتزايد للرسالة المسيحية في الإمبراطورية الرومانية، ومن أجل ضمان وحدة الإمبراطورية، أعلن الإمبراطور أورليان Aurelian من روما في العام ٢٧٤ في مناسبة تدشين معبد إله الشمس، عن قيام عيد «مولد الشمس التي لا تقهر» Natalis Solis Inviciti في ٢٥ كانون الأول . وأصبح هذا العيد من أعظم أعياد الإمبراطورية والمتعلقة بعبادة الشمس، وصار أيضا من أهم الأعياد المناهضة للمسيحية.

بعد أقل من خمسين سنة بعد أورليان جاء الملك قسطنطين في القرن الرابع وأعلن المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية، وحول العبادة من الشمس إلى المسيح.

انتهت الاضطهادات وبدأ عصر الانتشار الفعلي الكبير للمسيحية وبناء الكنائس. ربما لم يكن سوى عشرة بالمئة من أهل المسكونة مسيحيين. وكان على الكنيسة تبشير الباقين. لم تستعمل الكنيسة القوة لجلبهم إلى الإيمان بل عملت على إقناعهم عبر استعمال ما كانوا يؤمنون به وتنقيته وإعطائه المعنى المسيحي الأسمى. ولذلك ولكي تبعد عن المهتدين الجدد خطر العودة إلى عبادة الشمس، جعلت الكنيسة في روما عيد ميلاد السيد «شمس العدل» مكان عيد ميلاد الشمس في ٢٥ كانون الأول، لما كان لهذا العيد من أهمية كبرى لديهم في السابق. «ميلادك أيها المسيح إلهنا قد **أشرق نور** المعرفة للعالم، لأن الساجدين للكواكب به تعلموا من الكوكب السجود لك يا شمس العدل...». أخذت الكنيسة موضوعاً مألوفاً من الديانات القديمة عبادة الشمس كنور وحياة واستعملته في نشر إيمانها بالمسيح. لقد قالت الكنيسة للعالم: أنتم تؤمنون بالشمس، لكن شمس العالم الحسية هذه يجب أن تكون رمزاً وانعكاساً وأداةً لشمس إلهية روحية سامية، الذي هو نبع الحياة والنور والنصر... أنتم تمجدون ولادة الشمس الحسية ونحن ندعوكم لتمجيد مجيء الشمس الإلهي إلى العالم. ندعوكم إلى الخروج إلى العالم المادي والحسي والدخول إلى العالم الروحي غير المنظور». نذكر ان عبادة «شمس العدل» مذكورة في سفر ملاخي النبي (٢:٤) في العهد القديم، وقد ذكرها في القرن الثالث القديس كبريانوس القرطاجي (٢٠٠-٢٥٨) في إحدى عظاته التي يقول يقول فيها: «... سوف يشرق عليكم شمس العدل، ويشفيكم بأجنحته».

لا نعرف تماماً السنة التي تبنت فيها روما يوم ٢٥ كانون الأول للتعييد للميلاد. لكن الأكيد ان أول ذكر له في هذا اليوم يعود للعام ٣٣٦. ففي سجل التأريخ (Chronograph) الذي وضعه فيلوكالوس (Philocalus) عام ٣٥٤، نجد لوائح بالأعياد الرومانية والمجالس وأعياد الشهداء والتذكارات، إضافة إلى لائحة وفاة الأساقفة تبدأ في ٢٧ كانون الأول، وأخرى لتاريخ دفن الشهداء (Depositio Martyrum) تبدأ في ٢٥ كانون الأول ويُعيّد فيه لـ«ميلاد المسيح في بيت لحم». ويذكر فيلوكالوس انه استند في إعداد لوائحه على لوائح قديمة أُعدت بعد موت سيلفستروس في ٣١ كانون الأول ٣٣٥. وبهذا يصبح من المؤكد انه منذ سنة ٣٣٦ كان التعييد بالميلاد في روما يتم في ٢٥ كانون الأول وهو يوم بداية السنة الليتورجية.

في الشرق يختلف تاريخ اعتماد ٢٥ كانون الأول بدل ٦ كانون الثاني للاحتفال بذكرى الميلاد من مكان لآخر. كتاب الأوامر الرسولية (حوالي سنة ٤٠٠ في سوريا) يذكر هذا اليوم.

في إنطاكيا، أول ذكر للعيد في هذا اليوم يرد في عظة عن الميلاد للقديس يوحنا الذهبي الفم (عام٣٨٦) يقول فيها انه تمنى أن يرى هذا اليوم منذ زمن طويل، وانه يعرف هذا التاريخ منذ أكثر من عشر سنوات، ويقول ان هذا التاريخ اعتمد الغرب وانتشر بسرعة. أما في القسطنطينية فقد عرف العيد في هذا التاريخ مع القديس البطريرك غريغوريوس النزينزي الذي يذكر في عظة عيد الظهور عام ٣٨١ الاحتفال بالميلاد في ٢٥ كانون الأول عام ٣٨٠. وفي كبادوكية يذكر القديسين باسيليوس الكبير وغريغوريوس النيصصي هذا التاريخ عام ٣٧٠.

في مصر بقي التعييد للميلاد والظهور الإلهي في ٦ كانون الثاني، وأول دليل على تغيير تاريخ الميلاد إلى كانون الأول ورد إلينا في عظة القديس كيرلس الإسكندري (+٤٤٤) تعود للعام ٤٣٢ بعد مجمع أفسس المسكوني الثالث (ضد النساطرة عام ٤٣١) في إطار الصراع الخريستولوجي، لإثبات بشرية المسيح.

وحدها كنيسة أورشليم لم تقبل بسهولة نقل عيد الميلاد إلى ٢٥ كانون الأول، وظل الأمر بين أخذ ورد إلى أن أصدر الإمبراطور يوستينوس الثاني (٥٦٥ – ٥٧٨) أمراً ملكياً بوجوب التعييد في ٢٥ كانون الأول. وحدهم الأرمن لم يفصلوا العيدين وما زالوا حتى يومنا هذا يعيدون للميلاد والعماد في ٦ كانون الثاني ، ويعيدون لدخول السيد إلى الهيكل في ١٤ شباط، فيما نحن نعيِّد لهذه الذكرى في ٢ شباط.

يقول الرب: «ما جئت لأنقض بل لأكمل» (متى ١٧:٥). وعيد الميلاد هو كمال عيد الشمس. ميلاد السيد المسيح هو تحقيق وتكميل لما كان يتوق إليه الشعب في القديم، به تحقيق الحرية، حرية البشرية وتحطيم نير العبودية للشيطان. الاحتفال بعيد الميلاد هو احتفال بالخالق بدل الاحتفال بالخليقة. فالرب يسوع هو من خلق السماء والأرض **والشمس** وهو رب كل ما في هذا الكون.

+ تأمل

لو فهم البشر قدرة كلمات المسيح: " تعلّموا مني التواضع والعذوبة "، لَتَركوا العـــالم بأسره وكل المسكونة وكل العلوم الأخرى بحثاً عن هذا العِلم الإلهي.

إن الناس لا يعرفون قدرة وفاعليّة تواضع المسيح، لـــذا ينقـــادون الـــى الدنيويّـــات. والإنسان لا يمكنه معرفة قوة هذه الكلمات وقدرتها، إلا بالروح القدس،أما الذي عرفـــها فلـــن يتخلّى عن هذا العلم مطلقاً حتى ولو وهبوه كل ممالك الأرض.

يا سيّدي، إمنحني تواضعك حتى يسكن حبك وتخيا خشيتك القدّوسة فيّ.

إنه لمن الصعب جداً العيش دون أن نحب الله، هكذا تكون النفس غائرة في ظلمـــات الضجر. ولكن، إذ يقبض الحب على النفس، يصبح من المستحيل وصف فرحها.

روحي عطشى للوصول الى تواضع المسيح، وهي ترجوه ليل نهار، وأحيانا أتضـــرّع صارخاً:

" أن روحي تشتاق إليك، وأبحث عنك بدموع".

يا سيّدي، كم تحب خليقتك! وبخفية عن النظر تعاين الروح نعمتك، فتشكرك برعـــدة وحب.

يا إخوتي الأحبة، بعبرات أكتب هذه السطور. عندما تعرف النفس ســـيّدها بـــالروح القدس، تكون في كل لحظة أسيرة الدّهش أمام مراحم الإله، وعظمة ملكه وكليّة اقتداره. أمـــا أذا كانت النفس ما زالت بعيدة عن اقتناء التواضع – لكنها ترجو وتحاول – فإنها لا بـــد أن تعرف التغيير: فتارة هي في صراع مع " الأفكار " ، لا تعرف السكينة، ومرّات أخرى هـــي في حلّ من " أفكارها " وتستطيع أن تتأمل السيّد وتعي حبّه.

لهذا قال السيّد : " تعلّموا مني فإني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم".

إذا لم يتعلّم الإنسان التواضع والحب والرقة، فلن يمنحه السيّد معرفته. لكن النفس التي عرفت السيّد بالروح القدس تكون مجروحة أبداً بحبّها ذاك ولا تقوى على نسيانه. وكما يتذكّر المريض دوماً مرضه، هكذا الروح التي تحبّ السيّد تتذكّره، وفي تذكاره الدائم وحبّه تخـــبّر الإنسانيّة كلها عنه.

بماذا نبادلك يا سيّد ؟

أنت الرحوم، أنت خلّصت نفسي من خطاياها، ومنحتني أن أعرف رأفاتك.أنت فرّحت قلبي وهو منشّد إليك بلا توقّف ، بلا استرخاء، أنت يا نوري. بماذا أكافىء الربّ عن كل مـــا أعطاني ؟ ... بماذا نبادلك ؟

أنت أقمت روحي لأحبك وقريبي، وما زلت تمنحني دموعاً كي أصلّي من أجل العالم كلّه.

مباركة هي النفس التي عرفت خالقها وأحبّته، لأنها وجدت فيه راحتها الكاملة.

إن رحمات السيّد لا نهاية لها. إن روحي ذاقت رحماته وأكتب عنها الآن راجياً أن تتعرّف الى السيّد، ولو روح واحدة، فتلتهب بنار التوبة عشقاً له.

لو لم يعطني السيّد معرفة رحماته بالروح القدس، لكنت يئست بسبب كثرة خطاياي لكنه الآن أسر روحي، فاحبّته ونسيت كل ما على الأرض.

آه يا سيّد، إمنحني قلباً متواضعاً حتى يعظّمك دائماً فتسرّ به.

إعلموا كلّكم يا شعوب الأرض، كم يحبّكم السيّد بأي حلم يناديكم: " تعالوا إليَّ، وأنا أُريحكم أمنحكم الراحة على الأرض وفي السماء، فتُعَاينوا مجدي. لن يفهموا الآن ، لكن الروح القدس سيعرفكم بحبّي لكم. لا تتأخّروا، تعالوا إليَّ، فإني أنتظركم بشوق عظيم، مثل أولادي الأحبة، لأعطيكم سلامي، فتكونوا معي في الفرح ويكون فرحكم أبدياً".

يا إخوتي، إني بدموع أكتب هذه السطور.

عندما تعرف النفس السيّد بالروح القدس، فإنها، وفي كل لحظة، وبلا توقف، تقف مدهوشة أمام عظمة الله وقدرته. فالسيّد يلقّن النفس أفكار التواضع والخير بنعمة وبحنان، كما ترشد الأم ابنها الحبيب، فيكشف لها حضرته. إذ ذاك تتأمل الروح السيّد بدهش وبتواضع عظيم، خلّواً من أي فكر آخر.

إن السيّد يحبّ الإنسان، ونعمته ساكنة في الكنيسة حتى. يوم الدينونة الأخير، كما كانت ساكنة فيها منذ العصور الماضية.

إن السيد يحب الإنسان، ومع أنه خلقه من الطين، ولكنه كساه بالجمال " والبهاء "، بنعمة الروح القدس.

نحن نعرف السيد بالروح القدس ، وبالروح القدس نحبه. لكن، بغير الروح القدس، ليس الإنسان إلا ترابا وخطايا.

السيد يهذب أولاده بواسطة الروح القدس، بدمه الكل] الطهر وبجسده، وكل الذين يتبعون السيد يشابهون الرب، أباهم.

إن الروح القدس يجعلنا في قربى مع السيد. إعرف أنك إذا أحسست بداخلك سلاما إلهيا وحبا لكل الشر، فإن روحك تكون مشابهة لروح السيد.

القديس سلوان الآثوسي